
THE
LAST STEP

الجزء الثاني

عتبة 9

الخطوة الأخيرة

في الطفولة نعتقد أن العالم ينتهي حيث ينتهي نظرنا.

التلّ وراء البلدة.

الطريق وراء الحيّ.

الأفق وراء البحر.

نظن أن الحد يتطابق مع ما نعرفه.

ثم نكبر.

ونكتشف أن أهم الحواف ليست جغرافية.

إنها داخلية.

لسنوات كثيرة تخيّلت حياتي كمجموعة من الأقاليم التي يمكن بلوغها.

عمل.

منصب.

هدف.

مشروع.

كلما بلغت غاية، ظهرت أخرى.

كلما عبرت حدًا، وجدت حدًا جديدًا.

في البداية كان الأمر مثيرًا.

بدا شكلًا من التقدم.

ثم بدأت ألاحظ شيئًا.

لم تكن المحطات هي ما يحوّلني.

بل العبور.

اللحظة التي أترك فيها الأرض المعروفة وأضع قدمي على شيء لم أعد أتحكم فيه.

هناك كانت تحدث الأشياء المهمة.

دائمًا هناك.

لا في الأمان أبدًا.

دائمًا على الحافة.

الحافة مكان خاص.

لا تنتمي إلى الماضي.

لا تنتمي إلى المستقبل.

إنها خط رفيع حيث تنتهي اليقينيات وتبدأ الاحتمالات.

لهذا تخيف.

ولهذا هي ثمينة.

عبرتُ حوافَّ كثيرة في حياتي.

بعضها مهني.

بعضها شخصي.

بعضها غير مرئي لأحد سواي.

اليوم الذي تركت فيه أمانًا.

اليوم الذي قبلت فيه مسؤولية أكبر.

اليوم الذي غيّر فيه مرض معنى الزمن.

اليوم الذي غيّرت فيه خسارة معنى الحب.

في كل مرة كانت الآلية نفسها.

أولًا الخوف.

ثم الشك.

ثم الخطوة.

وأخيرًا الاكتشاف.

مع مرور السنين تعلمت أن كل الأشياء المهمة تقريبًا تعيش وراء الحافة.

الحب يعيش وراء حافة السيطرة.

الثقة تعيش وراء حافة الخوف.

النمو يعيش وراء حافة العادة.

الحرية تعيش وراء حافة الأمان.

والمعنى يعيش وراء حافة الأنا.

هذا لا يعني أن الحافة مريحة.

ليست كذلك أبدًا.

لا أحد يعبر حقًا حدًا داخليًا دون أن يدفع شيئًا.

يجب ترك قناعات خلفنا.

عادات.

هويات.

نسخ متجاوزة من الذات.

كل تحوّل يتطلب انفصالًا.

وكل انفصال يولّد شكلًا من الألم.

لهذا يفضّل كثير من الناس البقاء.

ليس لأنهم ضعفاء.

بل لأنهم يدركون الثمن.

المشكلة أن البقاء أيضًا له ثمن.

ثمن أقل ظهورًا.

لكنه حقيقي.

ثمن الاحتمال الضائع.

ثمن الحياة التي لم تُعش.

ثمن السؤال الذي بقي بلا جواب.

أحيانًا سألت نفسي ماذا كان سيحدث لو أنني اخترت الحذر مرات أكثر.

لربما ارتكبتُ أخطاءً أقل.

لتألّمت أقل.

لخاطرت أقل.

لكنني كنت سأصبح شخصًا مختلفًا.

ربما أكثر حماية.

وبالتأكيد أقل اكتمالًا.

لأننا في كل مرة نعبر فيها حافةً، يُكشف لنا أخيرًا جزء من الواقع.

ليس قبل ذلك.

ليس بعده.

فقط أثناء العبور.

هذا هو السبب في أنه لا كتاب يمكن أن يحلّ محلّ تجربة.

لا نصيحة يمكن أن تحلّ محلّ اختيار.

لا نظرية يمكن أن تحلّ محلّ حياة معيشة.

نستطيع أن نستعد.

نستطيع أن ندرس.

نستطيع أن نصغي.

لكن العبور يقع دائمًا على عاتقنا.

وهو عبور نخوضه وحدنا.

يستطيع الناس مرافقتك حتى الحافة.

يستطيعون تشجيعك.

يستطيعون مساندتك.

يستطيعون أن يحبّوك.

لكن الخطوة الأخيرة تخص دائمًا من يخطوها.

مع الوقت بدأت أرى الحافة لا كعائق بل كدعوة.

دعوة للخروج مما كنت أعرفه سلفًا.

للكفّ عن تعريف نفسي بما فعلته.

لإفساح المجال لما لا يزال بوسعي أن أصيره.

هذا الوعي غيّر علاقتي بالمستقبل.

كففت عن اعتباره وجهةً.

بدأت أعتبره إقليمًا للاستكشاف.

لم يكن عليّ أن أتحكّم فيه.

كان عليّ أن أعبره.

إنه فرق هائل.

لأن السيطرة تولّد توترًا.

الاستكشاف يولّد فضولًا.

والفضول أحد أرقى أشكال الشجاعة.

إذ أنظر إلى الوراء اليوم، لا أتذكر كل النتائج.

لا أتذكر كل الأرقام.

لا أتذكر كل الانتصارات.

لكنني أتذكّر الحواف.

اللحظات التي كان بوسعي أن أعود فيها ولم أفعل.

اللحظات التي كان بوسعي أن أغلق فيها الباب ففتحته.

اللحظات التي كان بوسعي أن أختار فيها الأمان فاخترت الاحتمال.

لم تجرِ الأمور دائمًا على ما يرام.

أحيانًا أخطأت.

أحيانًا دفعت ثمنًا باهظًا.

لكنني في كل مرة تعلمت شيئًا ما كنت لأتعلمه لو بقيت ساكنًا.

وهذا ما يهم.

في نهاية العمر لا نُعرّف فقط بما بنيناه.

نُعرّف أيضًا بالحدود التي امتلكنا الشجاعة لعبورها.

لأن كل إنسان يملك حافة.

خط غير مرئي تبدأ وراءه النسخة التالية من ذاته.

معظم الناس يراقبونها من بعيد.

بعضهم يقترب منها.

قلة يعبرونها.

أنا لا أعرف إن كنت شجاعًا.

أعرف فقط أنني كلما وضعتني الحياة أمام حافة، حاولت ألا أتراجع.

لأنه هناك يصبح العالم أكبر.

هناك يصبح الإنسان أصدق.

هناك تستمر الحكاية.

وراء الحافة.